



المصباح الذي لم ينطفئ



خليل الصمادي - فلسطين

احتفالاً بقدوم شهر رمضان الذي أصبح على الأبواب، ولا ندري أهو بعد يومين أم ثلاثة؟
قال عمر: فكرة رائعة، فشهر رمضان يستحق ذلك.
قال خالد: ما رأيكم بشراء حبل من المصابيح الصغيرة؟
رد عليه سعيد: ولكن لا نملك ثمن

الحبل فهو غال، وليس في قدرتنا شراؤه!!
أجاب عاهد: عندي ربطة من الأسلاك الكهربائية لا نحتاجها أتبرع بها للمشروع.
قال أحمد: فكرة جيدة، وما علينا إلا أن نحضر المصابيح.

في عصر يوم الخميس الأخير من شهر شعبان تواعد ثلة من فتيان حي شغاف الجميل، الذي يقع في الشمال الشرقي من مدينة القدس المحتلة على الاجتماع بالمسجد الأقصى، بعضهم صلى العصر هناك، وبعضهم أداها في المسجد القريب من منزله، وانطلق صوب أولى القبلتين، وبعضهم جاء على الموعد بعد الانتهاء من دوراته التعليمية. جاؤوا من أماكن شتى يجمعهم حب الأقصى والجيرة في شغاف.

قال خالد: أيها الشباب! أهلا وسهلا بكم، سبب اجتماعنا هو تزيين حي شغاف ببعض المصابيح

رد عبد الله: فكرة رائعة، وكل واحد مني يشتري مصباحا، فتمنه أقل من مصروفنا اليومي.

قال سعيد: ومن سيجوز هذا الشريط ويزينه بالمصابيح الجميلة؟

رد عليه أحمد: أنسىتم صديقنا محمد أبو خضير؟ فقد أصبح معلم كهرباء، فهو يدرس في مدرسة اللوثرى الثانوية الصناعية، وقد شاهدته عدة مرات يساعد والده في تمديد الكهرباء للبيوت والمحلات، ولا ندري لم تأخر عن الاجتماع! ألم تخبروه؟

تذكر عاهد وصاح: أرجو المذرة لقد نسيت أن أخبره.

وكان رد محمد: العفويا صديقي! فكلنا معرضون للنسيان والسهو.

لم ينتظر غسان كثيرا، فسرعان ما حمل جواله: السلام عليكم أبو خضير، أين أنت؟.. طيب، اسمع نحن جالسون في ساحة المسجد الأقصى قرب باب الأسباط، نعقد اجتماعا مهما، لا تتأخر نحن بانتظارك.

في أقل من نصف ساعة كان محمد مع أصدقائه هناك، فشعفاط ليست بعيدة كثيرا عن المسجد الأقصى.

كم كان محمد أبو خضير مسرورا من فكرة أصدقائه! فرغم تبرعه بتجهيز الشريط إلا أنه أصر على شراء مصباح كغيره من الأصدقاء، لكنه اقترح ألا تتشابه ألوان المصابيح، فطلب من كل واحد أن يختار لون مصباحه الذي سيشتريه.

اختار أحمد اللون الأحمر، وغسان اللون الأزرق، وسعيد اللون البنفسجي، وعمر.. الوردى، وعبد الله.. الأصفر، و... وأما محمد أبو خضير فقال: سأشتري مصباحا أخضر، فأنا أحب اللون الأخضر! ولما أراد عاهد شراء مصباحه منعه الأصدقاء قائلين له: يكفي

أنك ستحضر الأسلاك.

أحب غسان أن يمازحه فقال له: طبعاً لأن اسمك أبو خضير اخترت اللون الأخضر! فلو كان اسمك أبو زريق لأخذت اللون الذي أحبه!

ضحك الجميع، واتفقوا على البدء في العمل فوراً، ليتم تعليق الشريط غدا بعد صلاة الجمعة مباشرة.

وخلال رجوعهم لشعفاط مروا على محل لبيع الأدوات الكهربائية، واشترى كل واحد منهم مصباحه الذي اختار لونه. ولما وصلوا بيت أبي خضير جلسوا في ساحة البيت يساعدون محمداً في صنع الشريط، فقد أحضر بعض الأدوات اللازمة، وصار الجميع يعمل بهمة ونشاط، ولم ينس خالد إحضار بعض الأعلام الفلسطينية، وبعض اللوحات الصغيرة التي تحمل عبارات التهئة بقوم الشهر المبارك، مثل: أهلاً أهلاً يا رمضان، شهر مبارك، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، شهر رمضان شهر الانتصار على الأعداء، وقام بتعليقها بين المصابيح.

وخلال ساعتين من العمل المتواصل كان الحبل جاهزاً بطول عشرين متراً يحمل عشرة مصابيح ألوانها مختلفة تتخللها عبارات جميلة. واتفق الأصدقاء جميعاً أن يعلقوا الشريط بعد عودتهم من صلاة الجمعة في المسجد الأقصى.

استمتع الأهل والجيران في حي شعفاط وهم يشاهدون الفتيان الصغار يقومون بعملهم بجد ونشاط، إنهم خيرة شباب الحي، بعضهم يدرس في المرحلة الثانوية، وبعضهم في السنة الأولى من المعاهد التعليمية، وبعضهم التحق بالعمل ليساعد أهله على أعباء الحياة ولا سيما أن الصهاينة يرهقون أهل القدس العرب بالضرائب الباهظة.

بعض الجيران أحبوا أن يشاركوا الفتيان بالعمل، فمنهم من أحضر اسلالم، ومنهم من أحضر الماء



قال محمد: اتكلي على الله يا أمي، فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

كثير عاداتها وقفت الأم وعانقت محمدا وهي تقول: سلمتك لرب العالمين!

وصل محمد إلى زاوية الشارع التي تبعد عن منزله أقل من خمسين مترا، لم يجد أحداً من شباب الشلة، يبدو أنه وصل أولهم، وبعد أقل من دقيقتين كان عدد من أصدقاء الشلة باتجاه محمد، ولكنهم ذهلوا مما رأوا.. ماذا رأوا؟

قال عاهد: نحن في حلم أم علم؟

صرخ سعيد: انظروا نزل من هذه السيارة أربعة رجال، واختطفوا أبو خضير، صاروا يركضون نحو السيارة وهم يصرخون: يا الله.. يا الله.. ماذا حصل؟ الله أكبر! لقد استطاع بعضهم أن يلامس مؤخرة السيارة التي انطلقت بسرعة البرق بعد أن تجاوزت الإشارة المرورية الحمراء باتجاه مستوطنة راموت الصهيونية. اختفى محمد أبو خضير، واختفت السيارة، وأصر عبد الله أنه لمح حاكماً ذا لحية كثة يجلس بجوار السائق! سرعان ما انطلق الأصدقاء إلى بيت محمد ليخبروا أهله بما حصل، شاهدوا والده وأخاه رائدا وهم يهمون بالخروج للمسجد.. قال أحدهم: عمي أبو رائد! قبل قليل توقفت سيارة واختطف محمد!

قال أبو محمد: ماذا تقولون؟ لا حول ولا قوة إلا بالله؟ أين؟ متى؟ من؟ ما لونها؟ أين ذهبت؟ هل كنتم معه؟ من أي طريق انطلقت؟ وغيرها من الأسئلة وجهها رائد ووالده وهم في حالة من الصبر والثبات.

بعد أن أدى الجميع صلاة الفجر خرج جميع المصلين للبحث عن محمد، بعضهم انطلق إلى

البارد، وبعضهم صار يدعو لهم بالخير والتوفيق، وخلال ساعة.. وقبل أذان العصر كان الشريط يصل بين طريق الشارع الرئيس قرب المسجد، وعند أذان المغرب كانت الأنوار الخضراء والحمراء والصفراء والزرقاء تزيد حي شعفاط جمالا وبهاء، ففرح الأهالي بهذا العمل الجميل، لكن فرحتهم كانت أكبر لعلو همة شباب الحي وفتيانه.

في ليلة الرابع من رمضان تناول محمد أبو خضير صاحب المصباح الأخضر سحوره مع والديه وأخته، وقبل موعد الإمساك كعادته ودع أهله للذهاب إلى



مسجد شعفاط الكبير؛ إلا أن أمه حاولت أن تؤخره قليلا بقولها: ما زال الوقت مبكرا يا محمد! انتظر أباك وأخاك لتذهب معهما.

قال محمد: كل يوم يا أمي أخرج في مثل هذا الموعد، أنسيت أن (شلتنا) تتواعد على زاوية الشارع، وبعدها نذهب للمسجد لنقرأ القرآن قبل موعد الصلاة؟

قالت الأم: والله يا بني أعرف، ولكن شعورا غريبا انتابني!

وفي صباح اليوم التالي جاء الخبر مفصلاً: قام خمسة من مستوطني مستعمرة «راموت»: رجل متدين مع اثنين من أبنائه، واثنين من جيرانه باختطاف الفتى محمد أبو خضير، وبعد أن أوسعوه ضرباً قاموا بإرغامه على شرب البنزين، وبعدها أشعلوا النار فيه، فقتلوه، ثم قاموا بإلقاء جثته في أحراش دير ياسين القريبة من المستعمرة. هذا: وقد اعترف المستوطنون بجريمتهم، وأفادوا أنهم قاموا بهذا العمل رداً على اختطاف ثلاثة مستوطنين يهود في مدينة الخليل.



بعد صلاة يوم الجمعة الأولى من رمضان كان رجال شعفاط وشبابها وأطفالها على موعد للصلاة على جثمان الشهيد البطل، فخرجت الجموع تودع الشهيد البريء إلى مقبرة شعفاط.

وفي المساء وبعد صلاة التراويح تواعد أصدقاء محمد للذهاب إلى بيت العم أبي رائد لتقديم واجب العزاء، وأثناء مرورهم بالقرب من حبل الزينة صرخ عبد الله: يا إلهي!! انظروا إلى حبل المصاييح!! مصباح محمد الأخضر عاد أكثر إشعاعاً!! إنه لم ينطفئ، لم ينطفئ!! ■

البساتين المجاورة، وبعضهم إلى الحواري والشوارع العديدة، وفي ساعات الصباح الأولى من يوم الأربعاء من الرابع من رمضان انتشر خبر اختطاف محمد انتشار النار في الهشيم، حتى إن والده ذهب إلى مقر الشرطة الصهيونية وقدم بلاغاً بذلك، وبالرغم من عدم اهتمام الشرطة إلا أنهم وعدوه خيراً..!!

مرت الساعات والساعات ولم يعثر على أي خبر، حان موعد الإفطار ولم تذق أم محمد الطعام حزناً على ابنها، بالرغم من تشجيع الأقارب والجيران لها على تناول الإفطار. اقترب موعد صلاة العشاء والتراويح، خرج الأصدقاء إلى المسجد، وفي طريقهم نظروا إلى حبل الزينة وإلى المصاييح التي شعر أصدقاء محمد أن نورها أصبح خافتاً.

صرخ عبد الله: انظروا!! المصباح الأخضر مطفأ!! يا إلهي إنه مصباح محمد!! إنه الوحيد الذي انطفأ!! توجس الأصدقاء خيفة، وتعاهدوا ألا يخبروا أهله بذلك. وبعد أن أدوا الصلاة تابعوا مهمتهم في استقصاء أخبار محمد الصديق الوفي الذي يعرفه كل أهالي شعفاط بأخلاقه الحميدة ومساعدته للكبير والصغير. وفي المساء بعد أن يش الفتيان من الحصول على أي خبر، وخلال سمرهم الحزين والقلق ببيت عاهد، ومن على شاشات التلفزة أعلن عن الخبر العاجل المفجع: قبل ساعات عثر على جثة الفتى الفلسطيني محمد أبو خضير ابن الستة عشر عاماً محروقاً في أحراش قرية دير ياسين!!

ذهل الأصدقاء مما سمعوه، ولم يدروا ماذا يفعلون أو يقولون!! إلا أنهم أكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، حسبنا الله ونعم الوكيل، يرحمك الله يا محمد، لقد فعلها الأنجاس العنصريون أعداء الإنسانية..!!